ابن زيدون
حياته وأدبه

دكتور عبد الرحمن حسين محمد

ابـــن زيـــدون :

نخص ابن زيدون بدراسة مستفيضة دون غيره من شـــعراء الاندلس ، رغم كثرة الشعراء الاندلسيين المجيدين الذين يستحقون الدراسة كثرة عظيمة . ذلك أن هذه الدراسة بطبيعتها لا تتحمـــل التفصيل والكوم عن كل ما نحب أن نتكلم عنهم من الشعراء ، ولمـا كان كذلك فاننا اخترنا شاعرا يمثل الشعر الاندلسي ، ويقف في الصف الاول من شعراء الاندلس ، بل انه يحتل في الشعر العربى كله مكانا متميزا مهما ، فهو الشاعر الذى نرى بوضوح شخصيته في شعره ، ولا نعدم رؤيتها في كل لون من ألوان شعره حتى في مديحه ، لان الشعر عنده كان دائما حاجة داخلية ملحة تدفعه الى نظم الشـعر والتعبير عما يختلج في صدره ، وما ينبض به فؤاده ، ولذا كان أكثر الشعراء الاندلسيين شهرة في العالم العربى قديما وحديثا ، فاشتهر شـعره وانتشر وعورض من قبل العديد من الشعراء ، واشتهر على وجـــه الخصوص بقصيدته النونية التى ظفرت بتقدير الادباء وعارضـها الكثير من الشعراء قديما وحديثا ، كما أن هناك دراسات عدة قامت حول رسالته الهزلية والجدية ، مما لا يدع مجالا للشك بأنه يمثل ذروة

---

(١) أنظر : شوقى ضيف ابن زيدون نوابغ الفكر العربى ط ٧ دار المعارف الفصل الثانى ص١٥ .

الشعر الاندلسي ، خاصة وأنه عاش فترة ملوك الطوائف التي ازدهر فيها الادب وبلغ فيها الشعر الاندلسي أعلى مستواه ٠

الظروف السياسية والتاريخية :

ولد ابن زيدون عام ٣٩٤ هـ ـ ١٠٠٣ م وتوفي عام ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧٠ م فعاصر عهد الفتنة الذي بدأ بسقوط الدولة العامرية عام ٣١٩ هـ ـ ١٠٠٨ م وانتهى بأفول نجم الدولة الاموية التي سقطت عام ٤٢٢ هـ ـ ١٠٣٠ م وانتهت بأن استقل كل أمير باقليمه ، وتمزقت وحدة الاندلس على يد هؤلاء الامراء وبدأ عهد ملوك الطوائف ٠

وقبل أن يستقر الامر لملوك الطوائف كانت قرطبة عاصمة الخلافة مسرحا لفتنة طاحنة واضطرابات دموية ، أدت الى تفكك الاندلسيين ، وتفتيت وحدتهم ، وتصدع قوتهم وضياع الكثير من ملكهم وسلطانهم ، وذلك أن الخلافة كانت موضع شقاق بين الامويين أنفسهم ، فتوالى عدد منهم على الخلافة ، كما نازعهم على الخلافة بعض رؤساء البربر ، فاستعان هؤلاء وهؤلاء بالامراء المسيحيين الذين استغلوا خصومة المسلمين وضعفهم فاستولوا على الكثير من المدن والحصون وأباحوا العاصمة قرطبة لجندهم الداخلين مع الغائبين ، وقد لحق بقرطبة وبأهلها أضرار كثيرة ، فانتهكت قرطبة وخربت أجمل معالمها ٠

وقد انعكست آثار هذه الفتنة على نفوس الناس وأفئدتهم ، فلم يأمن الناس على حياتهم وامتلأت نفوسهم بالاضطراب والاحساس بالضياع ، ولذا انكب بعضهم على مجالس اللهو والمجون يفرق فيها قلقه ، ولجأ بعضهم الى ذوي السلطان ينشدون عندهم الامان بالرياء والنفاق وانطوى الآخرون على أنفسهم معتزلين الحياة ، فشاع في عهد الفتنة اللهو والنفاق والاطراء والنواح والشكوى من صروف

الزمان انعكاسا لما انطوى عليه الحال من قلق واضطراب وانهيار القيم والمثل في مثل هذا الجو نشأ ابن زيدون (١) ٠

نشأته وثقافته :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي من بني مخزوم بطن من بطون قريش ، فهو عربي صريح ينتمي الى بني مخزوم من قريش الذين رحلوا الى الاندلس في أيام الفتح الاولى (٢) ٠

ولد بالرصافة من ضواحي قرطبة عام ٣٩٤ هـ - ١٠٠٣ م وكان ابوه قاضيا او مستشارا لقاضي قرطبة يتمتع بمكانة دينية وعلمية سامية نظرا لما كان للقضاة في الاندلس من منزلة عالية ، وقد تلقى عنه ولده العلم أول ما تلقى ، ولكن الموت اختطفه ولا زال ابنه في الحادية عشرة من عمره ، فكفله جده لامه المعروف بأبي الهداهيد وكان متوليا أحكام الشرطة والسوق وكان شديدا صارما ، مات مقتولا على يد ابن سعيد وزير المعتد بالله الخليفة الاموي ٠

ونشأة الشاعر في قرطبة أتاحت له فرصة الاتصال بمعاهد التعليم والتحصيل التي كانت تزخر بها قرطبة آنذاك ، ويظهر من آثار ابن زيدون أنه كان ذا ثقافة واسعة شملت علوم العرب وفنون اللغة فعرف الكثير عن أخبار الادباء وآثارهم وأمثال العرب ووقائعهم وأيامهم ٠ وفي رسالته الهزلية نرى بعض المصطلحات الفلسفية التي

---

(١) انظر : احمد هيكل : الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٣٤٢ وما بعدها ٠ دار المعارف ط ٧ ١٩٧٩ ٠

(٢) انظر : - نفح الطيب ص ٢٩٠ ج ١

تدلنا على أنه كانت له ثقافة فلسفية ، كما أننا نلمس من شعره ومن رسائله الهزلية والجدية المامه الواسع بالتاريخ والاشعار والأمثال الثقافية الاسلامية ، مما يدل على أنه تتلمذ على كثير من مشاهير الادباء والعلماء في عصره ، وقد ذكر ابن زيدون في آثاره اسم استاذين له ، هما : ابو بكر بن مسلم بن أحمد الاديب النحوي والقاضي أبو بكر بن ذكوان . كما أنه لا بد وأن يكون قد انتفع بالكتب التي كانت تغص بها المكتبات في عصره ، مما يؤكد لنا سعة ثقافته وغزارة اطلاعه ، بالاضافة الى شخصيته الذكية ونفسه الطموح التي كانت تنشد السمو والاصول الى ما تتوق اليه كل نفس ذات همة عالية (١) .

وقد اضفت ثقافته ونبوغه المبكر عليه كثيرا من الثقة بالنفس والقدرة على مصاحبة الناس ومنادمتهم فكان يتصدر الكثير من مجالس اللهو التي انتشرت في قرطبة في ذلك الوقت والتي كان يؤمها الادباء وصفوة الناس ، كما بدأت شهرته في ميدان الادب تنمو بعد أن ظهرت بوادر النبوغ عليه فاتصل برجال السلطان الذين كانوا لا يقربون الا الادباء والشعراء واندفع بكل كيانه في أمور السياسة التي ظلت تلاحقه حتى وفاته .

وقد تعلق قلبه بولادة بنت المستكفي وشغف بها حبا ، فكان شاعر السياسة والحب وانعكس هذا كله على شعره الذي كان أصدق مرآة لحياة الشاعر المتقلبة .

---

(١) انظر علي عبد العظيم : ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ص ١٢ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥ م

ابن زيدون وولادة :

أحب ابن زيدون ولادة وشغف بها حبا وتعلقت بها نفسه فسال بحبها شعره ، فقال فيها الكثير من الغزل الرقيق الذى خلد اسمهما حتى اليوم .

وولادة هى بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبد لله بن ناصر الملقب بالمستكفى الخليفة الاموى الذى تولى قبل المعتمد بالله اخر خلفاء بنى أمية ، وقد حكم لمدة قصيرة من عام ٤١٤ هـ - ١٠٢٣ م حتى عام ٤١٦ هـ - ١٠٢٥ م ويقال أنه كان خليعا ماجنا لم يحسن الحكم وأغضب أهل المشورة والرأى في قرطبة فثاروا عليه ، فخرج هاربا متخفيا في زى امرأة حيث دس له السم فمات في منفاه .

وقد ترك وراءه ولادة ، وهى بنت لقينة حبشية ، ظلت طول عمرها دون زواج ، وكشفت عن نفسها الحجاب ، ولم تتصون كالحرائر ، ويبدو أنها كانت على جانب كبير من الجمال ، كما أنها كانت شاعرة تقول الشعر وتساجل الشعراء وتجالس الكتاب ، وكان بيتها منتدى لوجهاء قرطبة وأدبائها قال عنها ابن بسام في ذخيرته « أنها كانت واحدة أقرانها يتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وكان مجلسها في قرطبة منتدى لامراء المصر ، ولعله لم يتبذل حجابها الا بعد وفاة أبيها » (١) .

وكان ابن زيدون يتردد على منتداها وقد فتن بها وتعلق بها أشد التعلق ووصفها بأن الله خلقها من فضة صافية وتوج رأسها بالذهب الخالص :

---

(١) الذخيرة : القسم الاول المجلد الاول ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

ربيب ملك كأن الله أنشـــــأه
مســـكا وقدر انشاء الورى طينا
أو صـــــاغه ورقا محضا وتوجه
من ناصع التبر ابداعا وتحسينا (١)

وقد بادلته ولادة في أول الامر حبا بحب وكانت لهما لقـــاءات تبادلا فيها الحب والقرب ولكن ذلك لم يدم طـــويلا ، فقد وقعت الجفوة بينهما وكانت ولادة هى البادئة ولم تعد اليه مرة أخرى رغم استعطاف ابن زيدون وبكائه ٠

وربما كان سبب هذه الجفوة بينهما هو سوء معاملته لها ، فقد ذكر في شعره أنه ضربها وربما تكون قد جفته لانه شهر بها وفضحها في شعره أو أن يكون تقلب السياسة التى غرقت فيها ابن زيدون حتى أدنيه قد باعد بينهما فخافت وهى الاموية ان تتهم بتدبير المكـائد فاثرت السلامة والبعد عن شاب جسور مثله ٠ ومهما يكن من أمر فقد وقعت القطيعة بينهما وآثرت ولادة عليـــه الوزير أبو عامر بن عبدوس الذى يتوعده الشاعر قائلا :

حـــذار حـــذار فان الـــكريم
اذا ســـيم خســفا أبى فامتعض
فان ســكون الشـــجاع النهـــو
س ليس بمانعـــة ان يعض (٢،٣)

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ١١ : شرح وتحقيق كرم البستانى ، دار صادر ببيروت ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م ، وانظر المقرى فى النفح ص ٢٠٨ جـ ٤
(٢) النهوس : العضوض ٠ الشجاع : الذكر من الحيات ٠
(٣) الديوان : ص ٩٠ ، والنفح جـ ٤ ، ص ٢٠٩ ٠

فلم يأبه ابن عبدوس فيكتب رسالته الهزلية الى ولادة يسخر فيها على لسانها من ابن عبدوس ويتهكم عليه علها تقطع حبل ودادها معه ولكن ولادة لا تعيره التفاتا بل يشتد غضبها عليه ، كما تشتد العداوة بينه وبين ابن عبدوس الذى سيكون سببا في جملة الاسباب التى زجت بالشاعر في السجن .

ولقد كان عشق الشاعر لولادة حدثا هاما في حياته فقد أثر أعمق الاثر في انتاجه الادبى بحيث ظل الشاعر طول عمره متأثرا بالذكريات العميقة التى خلفها هذا الحب في نفسه ، فالشاعر يكتب كثيرا من القصائد لولادة مستعطفا محركا في قلبها ذكريات حبهما القديم ، ولكنها تصم أذنيها عن ندائه مما يزيد من لوعة الشاعر ، فيصطبغ شعره باللوعة والصبابة ، ويذكر أيامه معها ، والاماكن التى ترددا عليها والساعات الحلوة التى قضياها معا في أيام حبهما الاولى ،فهو في حنين دائم لها ، فكان شعره في هذه الفترة يفيض بالاخلاص والعواطف الجياشة ، ويظهر ذلك في كثير من غزله وخاصة قصيدته النونية التى سنتكلم عنها باسهاب عندما نتكلم عن غزل ابن زيدون .

ابن زيدون والسياسة :

نلحظ من حياة ابن زيدون ، ومن الظروف المحيطة به أنه لم يكن له مفر من أن يخوض غمار السياسة بكل جوارحه ، فقد كان أبوه قاضيا أو مستشارا للقاضي بقرطبة ، وللقضاء في ذلك العهد منزلة عالية فهم الاريب يتصلون بذوى السلطان ولهم كلمة مسموعة عندهم وعند العامة على السواء ،كما أن الرجل الذى تولى أمره بعد وفاة والده وهو جده لامه كان يتولى أحكام الشرطة والسوق ، وقد قتل على يد بنى أمية ، ولذا يغلب على الظن أن يكون قتله سياسيا ، وأن يكون ذلك قد حرك في نفس ابن زيدون عوامل السياسة .

كما أنه لا يمكن أن يكون شاب بذكاء ابن زيدون وطموحه بمنأى عن الاحداث التى تضطرب بها قرطبة ، فاتصاله بأهل العلم والرأى وتردده على منتديات اللهو التى يلجها علية القوم ، تحاك فيهـا المؤامرات كثيرا بالاضافة الى تقلب الخلفاء على الحكم ، قد جعل ابن زيدون حساسا لكل هذه الاحداث مشاركا فيها مدليا فيها بدلوه ، وقد وضعت الاقدار في طريقه الوزير الخطير ابن عبدوس الذى انتزع منه حبيبته ولادة مما لا يستبعد معه أن يطمح ابن زيدون في أن يكـون مثله أو أكثر ليطاوله ويظفر بالجاه والحب ، ولذا كانت الظـروف المحيطة بشاعرنا وما يتمتع به من نفس ذكية من العوامل التى جعلته يخوض غمار السياسة التى كانت سببا في دخوله السجن كما قلدته أعلى منصب في أيامه وهو الوزارة .

في بلاط بنى جهـور :

بعد عهد الفتنة التى انتهت بسقوط الخـلافة الاموية تولى السلطة أبو الحزم بن جهور ، وبقى الملك في بنى جهور حتى سـقط على يدى بنى عباد عام (٤٦١ هـ ـ ١٠٦٨ م .

وقد اتصل ابن زيدون بأبى الحزم وعمل له ، ولكن من الارجـح ألا يكون ابن زيدون في بداية حكم بنى جهور قد احتل مـكانا ممتازا في عالم السياسة وأغلب الظن انه لم يكن سوى شاعر شاب يتمتع بسمعة أدبية واسعة ولكنه لم يكن رجلا من رجال الدولة له خطره ، فهو لم يكن قد جاوز الثلاثين عندما تولى أبو الحزم السلطة ، وهو في سن مبكر يجعل من الصعب على الشاعر أن يرتقى سلم المناصب العليا في دولة ناشئة مثل دولة بنى جهور ، وأيا ما كان الامر فان أبا الحزم سرعان ما غضب على الشاعر وألقى به في السجن الذي ظـل بين جدرانه قرابة عامين ولم ينقذه سوى الهروب .

وقد ثار الجدل حول أسباب سجن ابن زيدون ، وأكثر الاقوال على أنه قام بمؤامرة ضد بنى جهور هو وجماعة من المتآمرين لاعادة حكم بنى أمية ، ذلك لان الشاعر كان يطمع أن يحصل على منصب ذى شأن في دولة بنى جهور ، فلما لم يعيروه التفاتا تامر عليهم ، ولكن المؤامرة فشلت فقبض عليه وأودع السجن وهذا الرأى قائم على أن ابن زيدون كان في ذلك الوقت شخصية سياسية خطيرة تؤثر في الاحداث .

ويذكر البعض سببا آخر وهو أن تهتك ابن زيدون ومجونه وتسلطه على أعراض الناس وعلاقته الشائعة بولادة كان سببا في اساءه سمعته الخلقية مما أدى الى غضب الحكام فألقوا به في السجن .

على أن ابن زيدون نفسه يوضح لنا من خلال رسائله أنه حوكم بسبب ارث اتهم باغتصابه بعد وفاة صاحبه ، ورغم أنه برأ ساحته من تلك التهمة الا أن القاضي المعروف بابن العكوى لم يصغ اليه ، وأدانه وأودعه السجن وذلك لضغينة بين الشاعر والقاضي المذكور ، فيبقى الشاعر في السجن أكثر من خمسمائة يوم سجينا وظل يناشد ابن جهور ويستعطفه ان يعفو فلا يعفو .

ومن السجن أرسل ابن زيدون رسالته الجدية الى ابن جهور ليستعطفه فيها كما أرسل له عدة قصائد مؤثره يطلب فيها عفوه ويناشده الصفح والعفو منها قصيدته التى بدأها بقوله :

الهوى في طلوع تلك النجوم
والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي
لو يدوم السرور للمستديم

وفيها يشكو من طول بقائه في السجن :

أيها الوزير ها أنا أشكو
والمصاب بدء قرعها للحليم
وبقاء الحسام في الجفن يثنى
منه بعد المضاء والتصميم
أفصبر مئين خمسها من الايام ناهيك من عذاب أليم (١)

ولكنه لم يجد من ابن جهور الا اذنا صماء وضاعت توسلاته سدى وعندما لم يعف عنه لم يجد له من حيلة سوى الفرار ، ففر من السجن ويقال ان ابا الوليد بن أبى الحزم هو الذى ساعده على الفرار لصداقة بينهما ، ويفر الشاعر عام ٤٣٣ هـ - (١٠٤١ م الى اشبيلية ليجد ذراعا مفتوحة وصدرا رحبا من ملكها المعتضد الذى غمره بعطفه ولكن ابن زيدون كان قلبه معلقا بقرطبة موطن صباه ومرتع هواه ، ومنها يرسل الى ولادة قصيدته النونية - التى أشرنا اليها من قبل - فلم يطق صبرا على غربته وعاد الى قرطبة ، واستخفى بضاحيتها الزهراء واحد يتشفع بأصدقائى ليشفعوا له عند أبى الحزم ، فكتب الى استاذه أبى بكر بن مسلم رسالة رائعة لبعاتبه فيها على انه لم يشفع له ، ولم يعمل على اخراجه من السجن ، ويبرر هروبه من السجن بأنه قد يئس من العفو عنه (٢) ومع هذه الرسالة أرسل قصيدته الطائية التى يقول فيها (٣)

شحطنا وما للدار نأى ولا شحط ... وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
أحبابنا ألوت بحادث عهدنا ... حوادث لا عقد عليها ولا شرط

---

(١) الديوان : ص ١٢٣ - ١٢٥
(٢) الذخيرة : ج ١ ص ٣٤٤
(٣) الديوان : ص ٨٤ - ٨٦

وفيها يقول مخاطبا ابا بكر :

عليـــك أيا بكـــر بكرت بهمة لها الخطر العالى وان نالهـا رهط
أبى بعدما هيل التراب على ابى ورهطى فذا حين لم يبق لى رهط
لك النعمة الخضراء تندى ظلالها عـــلى ولا جحد لـــدى ولا غمط

ويلين قلب ابى الحزم بعد هذه الشفاعة وبعد ان يبذل ابنه أبو الوليد مساعيه لدى والده ، فيعفوا عن الشاعر ولكن الامير يموت بعد قليل اذ توفي عام (٤٣٥ هـ - ١٠٤٣م) فرثاه الشاعر بقصيدة مطلعها :

المتر أن الشمس قد ضمها القبر وان قد كفانا فقدها القمر البدر (٢)

وهو في هذه القصيدة يتخذ من رثاء الوالد سبيلا لمدح الابن الذى تولى الملك ، والشاعر فيها لا يبكى من قلب متأثر بالمصاب ولكنه يأتى بالاوصاف التقليدية التى تتردد على لسانه كثيرا في قصائده الاخرى مما يدل على عدم صدق عاطفته .

ويتقلد ابو الوليد زمام الامور فيسر الشاعر ، ويعلن حبوره وسروره بأميره الجديد يقول في قصيدة جميلة معلنا فرحته .. ومطلعها :

ما للمـــدام تديرها عينـــاك فيميل في سكر الصبا عطفاك ؟
هـــلا نزحت لعاشقيك سلافها ببرود ظلمك أو بعذب لماك (٣)

وفيها يعلن فرحته فيقول :

بشراك يا دنيـــا وبشرانا معـــا هذا الوزير ابو الوليد فتاك (٤)

---

(١) بكرت : بادرت رهط : رهط الرجال قومه وقبيلته
(٢) الديوان ص ١٨٣
(٣) السلاف : الخمر الظلم بفتح الظاء : ماء الأسنان برود بفتح الباء : البارد لماك : اللمى سمرة فى الشفة
(٤) الديوان ٩٧ - ٩٨

وفي قصائده الاخرى التى يمدح فيها ابا الوليد يعلن الشاعر عن رغبة مكنونة في صدره وهى رغبته في ان يتولى الوزارة فيقول :

فديتـــك انى قائل فمعـــرض ... بأوطار نفس منك لم تقضها بعد

وفيها يقـــول :

لعمرك ما المال اسعى فانمـــا ... يرى المال أسنى حظه الطبع الوغد
ولكن الحـــال ان لبســـت جمالها ... كسوتك ثوب الفصح أعلامها الحمد

فيستجيب له أبو الوليد ويوليه النظر على أهل الذمة ، ويرفعه الى مرتبة السفارة ، فيسفر ابن زيدون لد عن الملوك والامراء ، ويلقى نجاحا عظيما في سفارته ، وفي هذه الفترة يتغنى الشاعر بأبى الوليد ويقول فيه المدائح ما يظهر فيها رنة الاخلاص ويشيع فيها تبضات الحب . على ان الامر يفتر بين الشاعر وأميره عندما تقوم طائفة من بنى زكوان ، وهم اسرة استاذه الشاعر ابى زكوان بمحاولة الاستيلاء على السلطان بقرطبة وقد احاطت الشبهة بالشاعر ولذا نرى الشاعر وهو يحاول ان ينفى عنه هذه التهمة ، وكأنه يخشي غضب الامير .

ثم يفسد الامر بين الشاعر وبين الامير ، عندما يرسله ابو الوليد سفيرا الى ادريس بن على الحسنى في مانقة ، فيطيل الشاعر اقامته هناك : فيغضب عليه الامير ويعزله عن السفارة فلا يعـــود الشاعر الى قرطبة وانما يولى وجهه شطر بلنسية ثم الى طرطوس ومنهـــا الى بطليوس ، ويلقى من امرائها كل ترحيب واجلال فيمدحهم ، ولكنه كان يتطلع الى بلاط ارحب وملك اوسع فصح عزمه على الرحيل مـــرة ثانية الى المعتضد بن عباد ملك أشبيلية الذى ذاع صيته واشتهر بحبه للادب والادباء فرحل اليه عام (٤٣١ هـ / ١٠٤٦ م) بعد ان تأكد أنه سوف يلقى منه كل ترحيب واعزاز .

---

(١) الديوان ص ٣٠٠

في بلاط بنى عباد :

بقى ابن زيدون في بلاط بنى عباد بعد ذلك حتى لحق بربه عام (٤٦٣ هـ / ١٠٦٦ م) وقد بلغ الشاعر في هذه الفترة اعلى مراتب المجد السياسي والاجتماعى والادبى ، فولاه المعتضد الوزارة ، ولقب بذوى الوزارتين ، وقلده امور دولته ، وجعله من أقرب المقربين اليه ، ودامت وزارته للمعتضد أكثر من عشرين عاما ، صار فيها موضع ثقته ومساعده الأيمن ، ولم يكن الشاعر فحسب بل كان رجله الاول الذى يعتمد عليه كل الاعتماد .

وقد مدح ابن زيدون المعتضد باثنتى عشرة قصيدة وهى من خيرة مدائحه وارقاها ذلك انه قدرضي عن حياته في اشبيلية ووجد عند المعتضد الجاه والمال والسلطان والتقدير وقد طرب المعتضد لهذا المديح فزاد في اكرام الشاعر ومن تقريبه له من هذه القصائد قصيدته الدالية التى مطلعهـــا :

للحب في تلك القباب مـراد ... لو ساعف الكلف المشوق مراد (٢)

وفيها يمدح المعتضد قائلا :

يا ايهـا الملك الذى في ظـله ... ريض الزمان فذل منه قيـاد
يا خير معتضـد بمن أقـداره ... في كل معضلة له أعضـاد
ما وردت بورد حضرتك المنى ... فقهت لدى جمامها الاعداد (٣)

---

(١) انظر شوقى ضيف ابن زيدون ص ٢٧ وجودت الركابى فى الأدب الأندلسى ص ١٨٥ ط ٤ دار المعارف

(٢) المراد : المكان الذى ترتاده الابل للرعى

(٣) فقهت : امتلأت جمامها : الماء الكثير والأعداد : جمع عد بكر العين وهو الماء الى الانقطاع له الديوان : ص ٢١٨/٢٢٤

ومنها قصيدته الرائعة التى قالها في عيد الأضـــــحى من عام (٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م) ومطلعها ..

أما في نسيم الريح عـرف معـرف
لناهل لذات الوقف بالجزع موقف
فنقضي اوتار المنى من زيارة
لنا كاف منها بما نتكـلف (١)

وهى قصيدة من أطول قصائده يمدح فيها المعتضد ويشكره على افضاله عليه ، ويعلن فيها أنه لم يعد به خصاصة ولا حاجة ولا خوف وانما هذا بسبب أميره يقول :

لقـد جدت حتى ما بنفسي خصاصة
وأمنت حتى ما بقلـــب تخـــوف
ولولاك لم يسهل من الدهر جانب
ولا ذل مقتـــاد ، ولا لان معطـــف
لك الخير ، أنى لى بشكرك نهضة؟
وكيف أؤدى فرض ما انت مسلف ؟

وتوفي المعتضد عام (٤٦١هـ / ١٠٦٨ م) وتولى ابنه المعتمد من بعده ولقى منه الشاعر كل تقدير واحترام ، فقد كان صديقا للشاعر قبل ان يتولى الملك ـ كما أنه كان شاعرا يقرب اليه الادباء والشعراء ، وكان بلاطه وجهة كل اديب ومنزلا لكل شاعروقد حاول اعداء الشاعر ومنافسوه أن يوقعوا بين الشاعر و المعتمد عند توليه الحكم ، ولكـن المعتمد فوت عليهم غرضهم ولم يصغ اليهم فحمد الشاعر له هـذه

---

(١) عرف : رائحة معرف : دل وأخبر الوقف : ســوار من عاج
الديوان : ١٠١ ، ١٠٩

الولد ومدحه بقصائد كثيرة . منها قصيدته اليمية التي يعرض فيها بحساده ومطلعها :

بالدهر ـ ان أملى ـ فصيح أعجم ... يعطى اعتباري ما جهلت فالعلم
ان الذي قدر الحوادث قدرها ... ساوى لديه الشهد فيها العلقم

وفيها يقول عن حساده : ـ

تلقى الحسود أصم عن جرس الوفا ... ولقد يصيح الى الرقاة الأرقم (١)
قل للبغاة المنبضين قبسيهم ... سترون من تصميمه تلك السهم
أسررتهم فرأى نجى عيونكم ... شيحان مدلون عليها ملهم (٢)

وفي عام (٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م) استولى المعتمد على قرطبة ، ونادى به أهلها ملكا عليهم ويدخل ابن زيدون قرطبة قرير العين فرحا بعودته الى وطنه ، ويزداد قدره عند الأمير ، فتتحرك كوامن الحقد في قلب الوزيرين ابن مرتين وابن عمار ، فيكيدان له ، ويشيران على المعتمد ان يرسله الى أشبيلية ليهدىء فتنة قامت هناك ، ويغادر الشاعر وطنه قرطبة وهو مريض اشد المرض فيهلك في الطريق ، ويكون ذلك في الخامس والعشرين من رجب عام (٤٦٣ هـ /١٠٧٠م) فيحزن الناس عليه في قرطبة ، ويشتد اسامهم على شاعرها لعبقري الذي سكت صوته الصداح بعد ان غنى شعرا خالدا .

آثار ابن زيدون :

ترك ابن زيدون وراءه ديوانا من الشعر شمل قصائد كثيرة وهي المديح والغزل والاستعطاف والعتاب والرثاء والتهنئة والشكر

---

(١) الأرقم : الثعبان المنبضين : المحركين وتر قسيهم لترن تصميمه : لقتله .

(٢) شيحان : غيور . الديوان ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

ومجالس الأنس ، يغلب على شعره المديح ثم الغزل ثم الأغـــراض الاخـــرى .

وقد ترك ابن زيدون رسائل كثيرة ، أشهرها الرسالتان الهزليـة والجدية ، وقد كتب ابن زيدون رسالته الهزلية على لسان ولادة يهجو فيها ابن عبدوس ، اما رسالته الجدية فقد كتبها وهو في السجن الى أبى الحزم ليستعطفه بها ليعيد له حريته ، وسوف نتكلم عن هاتين الرسالتين عندما نتحدث عن نثره ان شاء الله .

شعره : أغراضه وخصائصه :

الدارس لشعر ابن زيدون يرى أن شعره كان صدى لحياته وسجلا لما مر به من أحداث وتجارب متباينة خاض غمارها فعبر عنها أصدق تعبير ، فجاء شعرا صادقا معبرا في أكثره .

فحبه لولادة أثمر غزلا رائعا يزخر بالعواطف الحـــارة ويمتلىء عذوبة ورقة كما ان سجنه اوحى له برسالته الجدية وبكثير من قصائد الاستعطاف التى عبرت عن آلامه وأشجانه التى طالت والتى لقى فيها العنت والظلم .

ومدائحه التى قالها في بنى جهور وبنى عباد كانت صدى لحياته السياسية الطويلة الحافلة فقد بلغ فيها الذروة عنـدما استقرت به الامور واصبح ينعم برضي ابى الوليد ابن جهور صديقه الذى خلصـه من السجن ، كما أنه بلغ القمة في شعره الذى قاله في المعتضد والمعتمد اللذين عـرفا شأنه وقدراه ووضعاه فـوق كـرسي الـوزارة بعـد ان نضجت نظرته وتعمقت أفكاره ، فكان أدبه صادقا يصدر فيـه عن نفسه معبرا عما يجول فيها من انفعال . ونتكلم فيما يلى عن بعض أفراضه التى اشتهر بها وخصائص هذه الاغراض :

الغـــــزل :

يظفر الغزل من شعر الشاعر بنصيب وافر ، فلا يكاد يخلو منه مطلع لقصيدة من قصائده ، وربما طال المطلع حتى يكاد يستغرق نصف القصيدة ، وكثير من غزله استقل بقصائد فلم يمزجها بغرض آخر ، واشهر قصائده في هذا الباب قصيدته النونية ، وقد جاء غزله ممثلا لأطوار حبه المختلفة ، فقد أحبته ولادة ونعمت به ونعم بها ، ثم هجرته وصدته فاستعطفها فلم ترق له ، وظلت في صد عنه حتى يئس منها ، فكان في حنين دائم لها لا يكف عن ذكرها .

وقد جاء شعره ممثلا لكل هذه الاطوار فعندما كان ينعم بحبها جاء شعره لينا سهلا في الفاظه وتراكيبه ، بسيطا واضحا في معانيه يقول في ذلك :

هـــل تداعيـــك مجيـــب ؟ أم لشـــاكيك طبيـــب ؟
يا قريبـــا حين يـــأى حـــاضرا حـــين يغيـــب !
كيـــف بســـلوك محـــب زانه منـــك حبيـــب ؟
انمـــا أنت نســـيم تتلقـــاه القلـــوب

وعندما هجرته ولادة تلتهب عواطفه ، وتتعمق تجربة حبه فيصور شعره ألم الفراق ولوعة البعد في أشعار تمتاز بأوزانها الموسيقية كما في ابياته التى يقول فيها :

كـــم ذا اريـــد ولا أراد ؟ يا ســـوء ما لقى الفـــؤاد
أصـــحى الـــوداد مدللا لم يصـــف لى منـــه الوداد
يقضي عـــلى دلالـــه في كـــل حـــين أو يكـــاد
كيـــف الســـلو عن الذى مثـــواه من قلبى الســـواد ؟

---

(١) الديوان ص ٦٥
(٢) الديوان ص ٥١

ثم يزداد شعره نضجا في أواخر مراحل حبه وهو اليأس من حبه بعد القطيعة التامة من الحبيب ، فنراه يئن ويستعطف محبوبته مصورا سعادة حبه الأفل وعذابه المقيم ومناجيا حبيبته في شعر كله اخلاص وحب صادق ، وخير ما يمثل هذه المرحلة قصيدته النونية بل هى خير غزله كله .

قصيدته النونية :

هى قصيدة طويلة تبلغ ابياتها واحدا وخمسين بيتا ، وقد قال الشاعر هذه القصيدة بعد فراره من سجنه أى بعد عام (٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م) عندما سافر الى أشبيلية للمرة الاولى ، وبعث بها الى حبيبته ولادة في قرطبة ، وهى قصيدة توضح عبقرية الشاعر الذى نضجت تجاربه بعد هجران ولادة له ، وبعد أن مر بتجربة السجن القاسية التى صهرته فجاءت هذه القصيدة عصارة نفس متألمة ، تتعلق بحبها فلا تسلو ولا تنسى .

وقد نالت هذه القصيدة شهرة كبيرة بين الادباء والشعراء ، فعارضها الكثير منهم مثل صفى الدين الحلى وأخيرا أحمد شوقى الذى عارضها بقصيدته التى يحن فيها لوطنه ومطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسي لوادينا (١)

والشاعر في أول قصيدته يحملنا الى جو آلامه وأحزانه دون تمهيد مصورا لنا حاله وما آل اليه من حزن مقيم حتى ان الموت أصبح مثل الهجر عنده سواء ، ويظهر الشاعر في هذه الابيات وفاءه لولادة

---

(١) ديوان شوقى ١٤٧/١ : تحقيق وتبويب وشرح أحمد محمد الحوفى . دار نهضة مصر

وان الحزن كاد يقضي عليه ، ثم يقارن الشاعر بين حالتـــه الراهنة وبين أيام هنائه التى ولت فأيامه الحاضرة سود ولياليه معهـــا يوم القرب كانت بيضا • ونأتى ببعض ابياته التى قالهـا حول هـــذه المعانى :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينـا
الا وقد حان صبح البين صبحنا حين فقـــام بنا للحين ناعينـا
من مبلـغ الملبســينا بامتزاجهم حزنا من الدهر لا يبلى ويبلينـا
ان الزمان الذى مازال يضحكنـا انسا بقربهم قد عـاد يبكينـا
غيظ العادى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينـا
فانحل ما كان معقـودا بأنفسنا وانبت ما كان موصولا بأيدينا (١)

ثم يناجى الشاعر الطبيعة يشاركها احساسه فيطالب البرق أن يغادى قصرها ويجود عليه بالغيث لانه كان يسقيهم صرف الهوى، ويحمل النسيم تحيته الى حبيبته التى يحيا بسلامها • يقول في ذلك:

ياسارى البرق غاد القصر وأسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيـــاتنا من على القرب حبا كان يحيينـا
فهل أرى الدهر يقضينا مساعفه منه وان لم يكن غبا تقاضـــينا

وعنـدما يذكر القصر يقـوده ذلك الى ذكر من يسـكنه ، والى محبوبه الذى لا يشبه البشر ، فهو من طينة المسك وجسمه من الفضة وشعره من الذهب وهو لين رخص مرهف حتى ليدميـه مس العقـود والمجوهرات : يقول في ذلك :

ربيب ملك كأن الله أنشـــأه مسكا وقدر انشاء الورى طينا
أوصـاغه ورقا محضـــا وتوجه من ناصع التبر ابداعا وتحسـينا

(١) الديوان : ص ٩ ــ ١٢ ، والمعرى : لفح الطيب ص ٢٧٥ ــ ٢٧٧ ج ٣ تحقيق احسان عباس • دار صادر بيروت

إذا تأوه آنته رفاهيته ... تروم العقود وأدته البرى لينا

ثم يعود مرة اخرى الى المناجاة : فيبكي تلك الجنة التي أقصي عنها ، والكوثر الذي أبدل بها زقوما وماء حارا ، ويتذكر أيامه الخوالي عندما كان سرين في خاطر الظلماء لا يفضحهما الا لسان الصبح ، وفي نهاية قصيدته يعود الشاعر الى المناجاة مرة اخرى ويعلن أنه وفي ويطلب من الحبيب أن يبادله وفاء بوفاء ، ثم يودعها منكرا وفي نفسه حسرة وحزن ، يقول في ذلك :

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها ... والكوثر العذب زقوما وغسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من اجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

لاغرو إن ذكرنا الحزن حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

المدح :

يغلب المدح على شعره ، وقد ارتبط بحياته السياسية ايما ارتباط ، ومن خلاله يمكن أن نقف على كثير من حياته السياسية ، ففي مدائحه لابى الحزم بن جهور يغلب عليه الاستعطاف وطلب يدفع عنه التهمة التي لصقت به ، وقد ذكرنا أبياتا من ذلك عندما المغفرة والشكوى من الظلم الذي حاق به دون جريرة ، ويحاول ان تحدثنا عن حياة الشاعر في بلاط ابن جهور .

وفي مدائحه لابى الوليد نرى صدق العاطفة والاخلاص ، فالشاعر يحب أبا الوليد ويعترف بفضله عليه فهو الذي انقذه من السجن يقول فيه :

يا أيها القمر الذي لسنائه ... وسناه تعنو السبع في الافلاك

فرح الرياسة إذ ملكت عنانها ... فرح العروس بصحة الاملاك

من قال انك لست أوحد في النهى ... والصالحات فدان بالاشراك

وتبلغ مدائحه الذروة في كمالها الفني عندما يمدح المعتضد وابنه المعتمد فهو تعبير صادق عن محبة الشاعر واعترافه بالجميل لهذين الاميرين اللذين وضعاه في منزلة ليس بعدها منزلة ٠

بقيـــة الاغـــراض :

بجوار هذين الغرضين قال الشاعر في اغراض اخرى كالاستعطاف والشكوى والرثاء وغيرها ، وقد جاء استعطافه مبثوثا في اغراضـــه الاخرى كالمدح والغزل ، وقد أجاد فيها الشـــاعر وصـــدر فيهـــا عن عواطفه ٠

أما رثاؤه فكان بارد العاطفة ، يظهر فيه ضيق النفس ، وقـــد اتخذه وسيلة توسل بها الى ممدوحه كما ذكـــرنا فلم يخلص رثاؤه للميت لان طبيعته تأبى عليه ان يستمر فيه ، فيخلص منه الى من يتولى العرش كما فعل في رثاء ابى الحزم والمعتضد ٠

وللشاعر عدد من المقطوعات في الالغاز والاحاجى ، وعدد آخـــر في مناسبات شتى وكلها تنم عن ضعف العاطفة وقلة الاخـــلاص ٠

خصـــائص شعره :

مما سبق يتبين لنا أن ابن زيدون تناول في شعره كل الاغراض تقريبا ، ولكنه أجاد في الغزل والمدح والاستعطاف ، أما بقية الاغراض فقد كانت دون ذلك ٠

ولما كان أصدق الشعر هو ما كان نابعا من قلب الشاعر يدفعـــه الى قوله صدق عاطفته وتحرك مشاعره ، فاننا نرى ان أصـــدق

---

(١) الأملاك : الترويج الديوان ص ٤٢ ـ ٤٣

شعره كان غزله ولهوه واستعطافه لانه شعر ذاتي نابع من القلب لا يصدر ارضاء لشخص وانما هو صدى لما يختلج في نفسه ، ونرى صدق ما نقول عندما نستعرض قصائده التي قالها في ولادة ، فهي قصائد تحكي أطوار حبه ، وفي قصائده هذه نرى سهولة الالفاظ ونرى سذاجة محبته في المعاني وبعدا عن التكلف والتصنع ، وموسيقا رقيقة تناسب جلال الالفاظ .

أما مدائحه فلم تكن في منزلة غزله واستعطافه لان الشاعر فيها كان شاعر بلاط يسعى الى ارضاء ممدوحه ، مدفوعا برغبته في منصب ، ولذا نراه يتسلح لهذا بثقافة واسعة تجعل منه ناثرا وشاعرا قادرا على ان يشغل هذا المنصب ، وهو ينشد العون من بلاغته ولغته وفنه ليبهر الاسماع ، فجاء شعره تعوزه العاطفة وينقصه الابتكار فكانت معانيه واخيلته واساليبه صورة للشعراء العباسيين الذين اتخذهم له مثالا يحتذي به فكان كثيرا من أشعاره وأبياته ترجع الى أشعار العباسيين التي يغير عليها ، وخاصة ابي تمام والبحتري والمتنبي والمعري ، وهذا ما جعل ابن بسام يقول عنه : (وابو الوليد ابن زيدون على كثير احسانه كثير الاهتدام في النثار والنظام) (١) .

وقد لقبه الاندلسيون ببحتري المغرب ، وقد دفعتهم الى ذلك ما امتاز به شعره من موسيقا جاءت نتيجة لسهولة الفاظه وتناغمها وجرسها الذي جعل لها وقعا جميلا في الاذن ، وعذوبة في السمع ، وهو ان كان لم يصل الى البحتري الذي فتن به الشاعر كثيرا ونهج نهجه الا أنه في أكثر الاحيان لم يفقد في زحام ذلك شخصيته وروحه فكان أصدق صورة للشاعر الاندلسي .

---

(١) الذخيرة : ٣٢٦/١

نـــثره :

الرســالتان الهزلية والجـدية : ـ

ترك ابن زيدون رسائل كثيرة رائعة ، ولكنه اشتهر برســالتين الهزلية والجدية وقد كتبهما ابن زيدون ليعبر في الاولى على لســان ولادة عن بغضه وسخريته لابن عبدوس منافسه في حب ولادة ، فهى تتعلق بحياته العاطفية وما فيها من حب ومنافسة ، اما رســـالته الجدية فقد كتبها ابن زيدون وهو في السجن يستدر بها عطف ابن جهور ليعفو عنه ويطلق سراحه فهى تتعلق بحياته السياسية ٠

ويلاحظ على الرسالتين ان ابن زيدون قد حرص فيها ان يظهر سعة علمه وواسع اطلاعه فساق فيها الكثير من التاريخ وأســـماء الرجال وأشار الى كثير من الاحداث والاعلام واكثر من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث والامثال والحكم والشعر ٠

وقد نجح ابن زيدون في مقصده من رسالته الهزلية وهو الهـــزء والسخرية من ابن عبدون ، وان كان قد اخذ عليه كثرة السب والشتم وسلاطة اللسان ، نرى ذلك واضحا عندما يوجه كلامه الى ابن عبدوس قائلا : أما بعد ٠٠ ايها المصاب بعقله ، الموروط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب » (١) على انه يبدو في رســالته هذه قوى الانفعال ، ساخطا أشد السخط ، وهذا يظهر لنا صدق ألمه وعاطفته وتعلقه بمحبوبته ٠

أما رسالته الجدية فلم تنجح كما نجحت رسالته الهزلية فقـــد فشلت في ان تصل الى قلب ابن جهور ٠ ولم تحرك فيه عاطفة ، ونزعم ان ذلك انما كان لان عاطفة ابن زيدون لم تكن صادقة ، وان استعطافه

---

(١) على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله ص ٦٣٤ ، ٦٣٥ مكتبة نهضة مصر الفجالة ١٩٥٧ ٠

لم يكن حارا ولذلك لم يصل الى قلب ابن جهور كما ان ابن زيدون قد شغل عن عاطفته لاثارة قلب الامير بحشد المعلـــومات التـــاريخية وباظهار براعته في صناعة الكلام ، فشغل القارىء بذلك عن هدفه من الرسالة الى تقصي معانيها وحل رموزها ، بدلا من أن تتسرب الى قلبه .

وأسلوب ابن زيدون في نثره قوى جزل يشهد بقـدرته وبراعته رغم ان انشاءه فيها كان قليلا بالنسبة الى ما ساقه من معلـومات ، وهو لا يلتزم بالسجع في اسلوبه وان غلب السجع على رسالته الهزلية وهو يكثر من الجملة المترادفة ، ويقتبس آيات من القـــرآن وبعض احاديث الرسول ، ويستشهد بكثير من أبيات الشـــعر او نثرها ويضمنها كتابته ، وقد دلت هاتان الرسالتان على علـم ابن زيدون وسعة اطلاعه وقدرته العظيمة وان بقى شاعرا اكثر منـــه ناثرا . ونأتى هنا بنموذج من رسالته الجدية ، وهو :

« يا مولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتدادى به وامتدادى منه ، أبقاك الله تعالى ماضي حد العزم ، وارى زند الامل (١) ثابت عهد الندوة ، ان سليتنى ـ اعزك الله ـ لباس انعـامك ، وعطلتنى من حلى ايناسك ، وأظمأتنى الى برود اسعافك ، ونفضت بى كـف حياطتك (٢) وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد ان نظـر الاعدى الى تأميلى لك ، وسمع الاصم ثنـــائى عليك : وأحس الجمـــــاد باستنادى (٣) اليك ، فلا غرو : قد يغص بالماء شاربه ، ويقتـــل الدواء المستقى به : ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منيـــة المتمنى في امنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص (٤) .

---

(١) ورى الزند : افرج منه النار واقتدحه .
(٢) حياطتك : احاطتك .
(٣) يقصد الكاتب انه أسند الى ممدوحه كل مفخرة .
(٤) على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله ص ٦٨٢ ـ ٦٨٢ مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧ .